بريجيت باردو: رومنسيةٌ تلوم المسلمين على التضحية بالخراف

جان طنوس*

تَصْدر بريجيت باردو في كتابها **صرخة في الصمت** عن حساسية رومنسيةٍ مطعَّمةٍ بنزعةٍ تسعى إلى إعادة الإنسان إلى مركزه الأساسي، بعدما ضاعت هويتُه في خضمّ أوضاعٍ حضاريةٍ مستَلِبة. وليست باردو بدْعًا في هذا المجال، ولعلّها تنتمي إلى تيّار غربي عريق. غير أنّها تتميّز عن سواها بأنّ كتابها خالٍ من التنظير أو التجريد: فهو يَعْتمد لغةً بسيطةً جدًا، لكنّها شبهُ شاعرية. أما مواقفها فمستمدة من حقائق معيشة، حتى لكأنّك تَشْعر أنّكَ تعيش في باريس لشدّةِ ما تواجهك بوقائع لا سبيل إلى التهرّب منها.

وقد آثرنا أنْ تَنْدرج الأفكارُ الرئيسةُ لهذا الكتاب في محاور عديدة، منها: شخصيةُ المؤلفة، والطبيعةُ، والموقفُ من العرب والمسلمين، إضافةً إلى نقدها الحضاري

شخصية باردو

تنطوي شخصيةُ باردو على نزوع إلى المطلق، ومن ملامحه التشبُّثُ بحقيقةٍ متعاليةٍ لا يُمْكن المساومةُ عليها ويتّخذ هذا النزوع صفةَ التعارض بين المطلق (الطبيعة والدفاع عن حقّ الحيوان والإنسان في الحياة) والنسبي (العالم الفاسد والضائع)، ثم صفةَ التعارض بين الخير والشر ـ وهو أمر يذكِّر بالموقف الديني عند بعض المتصوفة عامةً.

والحقّ أنّ لباردو ميلاً إلى حبّ المخالفة والصراع، حتى لو أدّى ذلك إلى الإنهاك الجسدي والنفسي. ذلك أنّ المنوعَ المؤسَّسَ على الخطإ يستثير حميَّتَها إلى حدٍّ أنّها تصف نفسها بأنّها امرأة متوحِّشة غير قابلة للتدجين، ومتحرّرةٌ من الآراء السائدة، ووقحةٌ. والمحزن أنّها تعترف بوطأة الأحداث التي أَضْعفتْ حماستها، وجعلتها طعينةً جريحًا بيْد أنّ في أعماقها شوقًا إلى النقاء الذي لا يتحقّق لأنّ العالم يَفْتقر في ذاته إلى الكمال.

وحقيقة الأمر أنّ باردو في دفاعها عن الحيوان والإنسان تعبِّر عن نفس حسّاسة متألّمة لذلك تَعْترف أنّها تحتاج احتياجًا جارفًا إلى الحبّ لتنسى آلامَها ولتترقّى روحُها على الصغائر فتذوب في الطبيعة، أي في المطلقِ الأكثر نقاءً، بعيدًا عن سفاسف المجتمع

من الطبيعي، والحالةُ هذه، أن تتعلّق باردو بصورة مريم العذراء، بديلِ الأم ولذلك تصلّي لها عندما تئِنُّ جراحًا في معركة الحياة ثمة حوارات بين باردو والعذراء تتراوح بين العنف والحنان ومصدر العنف أنّ تلك النفسَ المرهفةَ تغضب غضبًا جميلاً حين تعاين الظلمَ اللاحقَ بالحيوانات. ولعلّ الناظر إليها مصلّيةً غاضبةً يَحْسبها مجنونةً (كما تعترف باردو). غير أنّها لا تَطْلب شيئًا لنفسها، كلُّ ما تَطْلبه هو أن يخفّ العذابُ، أو أن يُمحى عن وجه الأرض أما اللّه ـ ولعلّه بديلُ الأب الحامي ـ فهي تَشْكره لأنّه خَلَقَ هذا التناغمَ الحلوَ في الطبيعة، الذي يحميها من عالم معادٍ وصاخبٍ وفاسد ولأنّها متمرِّدة على الظلم نجدها تعاتب اللّه حين يَسْمح ـ في رأيها ـ بارتكاب المظالم، ولذلك تشكّك أحيانًا في وجوده مع أنّها تَعْترف بأنّه الجمال بعينه

ولا عجب أن تَعْشق باردو العزلةَ (مع أنّها كانت تَكْرهها قديمًا). فالعزلة درع تقيها من سهام الناس والأيام، كعزلة الصوفي الذي يسعى إلى تنقية نفسه بابتعاده عن شرور المجتمع

* ـ كاتب من لبنان

الطبيعة

تبدو الطبيعة بالنسبة إلى باردو أكثرَ من مشهد طبيعي أخّاذ. فالمؤلِّفة تُضْفي على العناصر المادية معنًى روحيًا أو رمزيًا. ولا غرو أن تتزوّج البحرَ حتى تذوب فيه ذوبانًا وتَسْتمع بمداعباته، فيغطّيها بغطاء من الملح تُشَبِّهه بنطفٍ خصبةٍ تولِّد تجدُّدًا مدهشًا في أعمالها. غير أنّها باتت تخشى من البحر نفسه، لكثرةِ ما فُجعتْ بآمالها.

ويطيب لباردو أن تَرْقص عاريةً في أحضان الطبيعة كساحرة من ساحرات الليل، تتأبّط المكنسة، في حين يراقبها القمرُ ذو العين الباردة. وتغزو ذاكرتَها حكاياتُ الطفولة، كحكاية الذئاب المرعبة التي تعوي تحت ضوء القمر. وحقيقة الأمر أنّها تحبّ الذئابَ إلى حدّ العبادة، وتعدُّها حيواناتٍ جذّابةً، شُجاعةً، مضطهَدةً، منبوذةً من الناس. ولا غرو أن تتماهى معها: أليست هي مرفوضةً ومضطهَدةً مثلَها؟

وإنْ صحّ أنّ الحضارة فاسدةٌ قائمةٌ على القتل والاستغلال والزيف والخروج عن الفطري والطبيعي، فإنّ الأرض تتراءى لها نقيضًا لهذه الحضارة، سخيّةً متنوِّعةً تنوُّعًا مدهشًا يتجدّد عبر تغيُّر الفصول. فكيف لا تستلطف ثمارَها وخضارَها وأزهارَها؟ وكيف لا تتولّه بأشجارها التي تُظْهر أغصانَها مثلَ أذرعٍ حاميةٍ؟

وبكلمة، فإنّ العودة إلى الطبيعة، جمادًا أو نباتًا أو حيوانًا أو عناصر، تَرْتبط عندها بمبدإ الحب، ومن ثمّ بمبدإ الحماية النفسية: فالطبيعة حضن وملاذ وجنس وخصب معنوي وراحةٌ عميقة؛ إنّها صورةٌ مصغّرةٌ عن جنّةِ عدن، بعيدًا عن هذا العالم الأحمق.

ومع ذلك، فإنّ العالم القاسي استطاع التسلُّلَ إلى هذه الرحم الدافئة، رحم الطبيعة؛ وهنا سرّ شقاء باردو فهي عندما تنطوي على نفسها تتواصل مع كائنات الطبيعة، ولكنّها حين تَخْرج من شرنقتها تصاب بالصدمة؛ وكأنّ المؤلِّفة تعاني رُهاب العالم. والمؤسف أنّها تناست أنّ في العالم رحمةً وإنسانية رفيعة. ولو أنّها كرّستْ جهودَها للدفاع عن السلام كما فعل «راسِلْ،» أو لحماية الفقراء المعدمين كما فعلت الأم تريزا، أو للتجنّد للدفاع عن ضحايا الاغتصاب والطفولة المقهورة... أقول لو أنّ باردو فعلتْ ذلك بدلاً من أن تتبنّى قضيةَ الحيوان وحدها، لظفرتْ بتأييدِ قطاعٍ واسعٍ من الناس نظرًا إلى شهرتها ومكانتها وإخلاصها.

الموقف من العرب والمسلمين

تتّصف بريجيت بنزعة إنسانية رفيعة، بقطع النظر عن بعض الهفوات التي ترتكبها. ففي مقدّمة الكتاب نجدها تدين الحربَ ضدّ العراق إدانة قوية، وتقول إنّه لا توجد حروبٌ نظيفة ولا قنابلُ ذكية؛ فالحرب لا تولِّد إلاّ الخرابَ والآلامَ والموت. وتؤكّد أنّه لم يَعُدْ مسموحًا بعد الحروب الكثيرة التي جلّلت العالمَ بالحداد أن ينبري زعماءُ الدول الكبرى الجشعون الدمويون، فيُصدروا أمرًا بإفناء بلدٍ بقطع النظر عن هويّته. ولكنّ عاطفتها المتألّمة لا تنصبّ نحو العرب والمسلمين وحدهم، بل تنصبّ أيضًا على التحالف الأميركي البريطاني فتَحْزن لأسرهم، كما تَحْزن لما حدث للأبرياء في ١١ أيلول سنة ٢٠٠١ وللمرة الأولى تجد نفسها فخورةً بالموقف الفرنسي الذي لم يَعْرف التنازلات، وتستنتج أنّ الأميركيين سوف يَكْسبون الحرب ولكنّ العالم سوف يَخْسر السلام.

أما في ما يتعلّق بالمسلمين الموجودين في فرنسا، فإنّ باردو تعلن بكلّ صراحة أنّها ضدّ أسلمة بلادها. ولذلك تشمئزّ ممّا تسمّيه إخضاعًا إجباريًا وهويةً مزدوجةً (إسلاميةً وأوروبيةً). إنّ الآباء والأجداد، كما تقول، ضحّوا بأرواحهم ليحرِّروا فرنسا من الغزاة المتعاقبين، ولكنّ حدثًا معاكسًا حصل منذ عقديْن من الزمن وهو تسلُّل العرب السري وغير المراقَب. فهؤلاء ـ أي العرب ـ لا يَخْضعون للقانون أو للتقاليد كما تَزعم، بل إنّهم بمرور السنين يتوقون إلى فرض قوانينهم وتقاليدهم على الفرنسيين، مع أنّ فرنسا كانت متسامحةً مع كل الأديان، ومع المسلمين الذين شيّدوا المساجدَ من غير أن يَطْمسوا التقاليد الفرنسية.

ولعلّ المأزق الرئيسَ عند باردو يتمثّل في عملية ذَبْح الخراف في العيد الكبير (عيدِ الأضحى)؛ ويتمّ ذلك في شوارع المدن، وفي فناءات الأبنية، وفي الحمّامات، وعلى السلالم، وفي الأماكن المكتظّة بالسكّان، وفي الأرياف. إنّها عادات

بريجيت باردو تدان بالتحريض على الكراهية العنصرية

دينتْ نجمة الإغراء الفرنسية السابقة بريجيت باردو (٦٩ عامًا) بتهمة التحريض على الكراهية العنصرية، وحُكم عليها بدفع غرامة قدرُها خمسة آلاف يورو (ستة آلاف دولار). ويَصْدر الحُكم على باردو للمرة الرابعة منذ عام ١٩٩٧، بعدما أصبحتْ من المدافعين عن حقوق الحيوان.

وأصدرتْ محكمة باريس حكمها ضدّ باردو بسبب تصريحات وَرَدت في كتابها صرخة في الصمت، وهو هجوم صريح على المثليين والمهاجرين والعاطلين عن العمل هَزّ فرنسا في العام الماضي. وقالت المحكمة إنّ باردو تقدّم المسلمين باعتبارهم غزاةً برابرةً قساةً مسؤولين عن الأعمال الإرهابية، يتوقون إلى السيطرة على الفرنسيين إلى حدّ الرغبة في إبادتهم. والجالية المسلمة في فرنسا، ويبلغ قوامُها خمسة ملايين نسمة، من أكبر الجاليات المسلمة في أوروبا.

ولم تحضر باردو جلسة النطق بالحكم، لكنّها نفت اثناء حضورها جلسةَ الشهر الماضي الاتهاماتِ قائلةً إنّ كتابها لا يَسْتهدف الإسلامَ ولا المهاجرين من شمال أفريقيا.

رويترز

بربرية، كما تقول، تتسبَّب بإراقة الدم وتناثُر العظام والجماجم. واللافت أنّ مذبحة العيد ـ بحسب باردو ـ لم تحرّك السلطاتِ المسؤولةَ، بل أهاجت الطمعَ وحبَّ المال عند بعض المزارعين الفرنسيين الذين يبيعون الخرافَ بأثمانٍ باهظة. وبذلك أصبح العيدُ الكبيرُ عيدًا للأخوّة (قائمًا على تلاقي المصالح بين المسلمين والتجّار الفرنسيين)![1]

على أنّ اعتراض المؤلِّفة كلّفها غاليًا؛ فلقد خَسرتْ أمام محاكم بلدها، ودَفعتْ مبالغَ من المال، في حين يستمرّ المسلمون في اتّباع هذه العادات المسوَّغة دينيًا. وتتساءل باردو: منذ متى صار الدينُ تابعًا للجمهورية؟ فقد ظنّت أنّ الانفصال بين الكهنوت والدولة تمّ منذ سنة ١٩٠٥، لتكتشف أنّ هذا الانفصال تَقيّد به الفرنسيون ولم يتقيّد به المسلمون. والمؤسف ـ تقول الكاتبة ـ أنّنا نُرخي سراويلَنا لتَنْتصب مؤخّراتُنا في الهواء!

وتعود بريجيت إلى حادثة ١١ أيلول ٢٠٠١ فترى فيها أمرًا جللاً تسبَّبَ في موت الآلاف، ومنهم الرهائنُ الذين تمّ احتجازُهم في الطائرات. هذه الحادثة في رأيها مقتلةٌ إرهابيةٌ لا يُمْكن تخيُّلها، أبطالُها رجالٌ أصوليون إسلاميون مخيفون، ذوو نزعة شيطانية. وتتحدّث عن الفتيان المسلمين الذي يروِّعون البشرَ، ويَغْتصبون الفتيات، ويَبْصقون على رجال الشرطة؛ وعند أدنى إشارة من رؤسائهم يجعلوننا نعاني فجأةً، كما حصل على مسرح موسكو الذي هاجمته جماعةٌ من المقاتلين الشيشان.

وتشمئزّ بريجيت من المهاجرين، ومن العاطلين عن العمل، لأنّهم مصدرُ متاعبَ لا تُحصى. كما تَنْعى أن يتبوّأ المؤلِّف الجزائري كاتب ياسين مركزًا مرموقًا في الكوميدي فرانسيز، مع أنّ كتاباته ذاتُ نغمة إسلامية ورطانة فجّة

وصفوة القول إنّ المؤلِّفة الفرنسية ـ كما تقول ـ لا تَكْره العربَ بوصفهم عرقًا، ولا تَكْره الدينَ بوصفه إسلاميًا. إنّها تَستنكر، بصورة رئيسية، ذَبْحَ الخراف في عيد الأضحى، ثمّ تَستنكر الإرهابَ وفرضَ الهوية الدينية على فرنسا. ولربما عبّرتْ باردو عن موقف شريحة من شرائح الفرنسيين ـ وأغلبُ الظنّ أنّ عديدَ هذه الشريحة سيتنامى خصوصًا بعد انفجار مدريد وعمليات الذبح بحدّ السيف ـ ولكنّها، بقطع النظر عن مسألة قتل الحيوان، تتلاقى، ولو نسبيًا، مع وجهات نظرٍ عربية تتأبّى أن يُتّخذ الدينُ مطيةً للإرهاب؛ كما تتلاقى مع تطلُّعات علمانية هَدَفُها فصلُ الدين عن الدولة. ونَذْكر في هذا الصدد أنّ مَنْعَ الرموز الدينية في فرنسا لم يَقْتصر على الحجاب بل شمل الرموزَ المسيحيةَ واليهوديةَ أيضًا. ثمّ إنّ بعض الأصوليين أَعْلنوا بصريح العبارة أنّهم يَرْغبون في أسلمة العالم، وقد سمعْنا البعضَ يقولون إنّهم خسروا معركة «پواتييه» ولم يَخْسروا الحرب. فإذا كنّا، نحن العربَ، ندين بشدةٍ حملاتِ التبشير المسيحية، ولاسيّما تلك التي تمّت بستارٍ من الاستعمار، أفلا ينبغي أن ندين انتهاكَ مبادئ الجمهورية الفرنسية؟ أَضِفْ إلى ذلك أنّ العرب القاطنين في فرنسا يتوجّب عليهم أن يَحْملوا إلى إخوانهم في الديار العربية رسالةً جديدةً قائمةً على تأويلٍ جديدٍ للدين ـ وكلُّ تأويلٍ عملٌ بشريٌّ محضٌ كما يقول الرئيس خاتمي ـ وعلى فصل السلطات الدينية عن سلطات الدولة، وعلى تحرير المرأة، ومحاربةِ الاستبداد أنّى وُجد. ولو فعلوا ذلك لنزعوا الخوفَ من قلوب الفرنسيين، ولاستطاعوا تغييرَ الرأي العام الأوروبي في سبيل تعزيز القضايا العربية.

نقد مفاسد العصر

كتاب **صرخة في الصمت** مفعمٌ بنقد جذري وعنيف «لمفاسد» العصر. وتؤمن المؤلّفة بأنّ كل شيء قد تغيّر في فرنسا: فالفن أضحى هلوساتٍ تُعَدّ روائعَ لا مثيل لها. والعمارُ أمسى مجمّعاتٍ من الباطون مجرّدةً من الحسّ الإنساني وكأنّها برجُ بابل. والرقص تحوّل إلى صَرَع جماعي، ومن ملامحه التكشيرةُ والسيقانُ المتشنّجة والأذرعُ المتصلّبة. أما الأدب فقد أصبح رواياتٍ إباحيةً مشبعةً بمشاهد الاستعراء واللواط. وقُلِ الأمرَ عينَه في المسرح الذي فَقَد رونقَه. وفي هذا المنحى يأتي التلفزيون الذي يَعْكس الانحطاطَ والغباءَ والبصبصةَ والخلاعةَ، حتى إنّ رجلاً مرموقًا يجاهر على الشاشة بتعاطي المخدِّر وبالجنس المبتذل. لقد تغيّر العالم حقًّا في رأي باردو، وها هم الناسُ يفاخرون بوقاع الحيوانات البريئة، ومنها الكلابُ والمعزى والبطُّ والدجاجُ والأرانب، والبعضُ من هذه الحيوانات يقضي نحبَه في هذه الممارسات المنحرفة. كما تفاقمتْ أيضًا حوادثُ الاعتداء على الأطفال، وحوادثُ اختطافهم من آسيا. والأفلامُ تعهّرتْ أيضًا؛ ففي الوقت الذي يصوِّر الفيلمُ مشهدًا جنسيًا، نرى

---

١ ـ توضح باردو نقطة هامة في هذه القضية، وهي أنّها ليست ضدّ قتل الحيوان بصورة مطلقة بل تنادي بالقتل الرحيم المبنيّ على التنويم الكهربائي L'electronacose. وقد وجّهت الكاتبةُ رسالةً إلى إمام مسجد باريس، الذي أجابها بأنّ هذه الطريقة لا تتعارض والدينَ الإسلامي. وتضيف باردو أنّ وزارة الداخلية الفرنسية أعلنتْ في ٢٠٠٢/٧/٢ أنّها تحبّذ هذه الطريقة أيضًا شريطةَ أن توافق عليها الطائفتان اليهودية والإسلامية. لكنّ الوزارة المعنية صرّحتْ في ٢٠٠٤/٢/١١ بأنّ سلطتها لا تقوم على تغيير معتقدات تيْنك الطائفتيْن، ومع ذلك فإنّها تشجّع الاتصالات التي قامت به باردو مع ممثل الطائفة اليهودية إذ إنّها قد تسهّل تطبيق هذه الطريقة. وتستنتج المؤلفة بأنّ ما حصل يشبه لعبة كرة الطاولة. فالكل يتقاذف المشكلة وما من حلّ. راجع الموقع الإلكتروني التالي. www.fondationbrigittebardo.fr

البطلَ المجرمَ لا يضيع وقتَه فيذبح ويقتل الضحايا. وحدِّثْ ولا حرج عن عمليات التجميل، وتبديلِ الجنس من ذكر إلى أنثى والعكس بالعكس؛ فما تبقّى «شيء طبيعي» في فرنسا. والأمرُ نفسُه ينطبق على «الڤياغرا» وعلى الاستيلاء على أعضاء الحيوان. كما ينطبق على الدعارة المزدهرة في غابة بولونيا حيث العجبُ العجابُ.

ولا تفوت باردو عملياتُ التلقيح الاصطناعي عند الحيوان والإنسان، فتدينها لأنها متشبِّثة بالفطرة، ولكنّها الفطرة المؤنسنة. وهي تنتقد المسؤولين أعنفَ نقد، وتلوم المدارسَ التي فَقَدت النظام، خصوصًا متى عَلِمْنا كيف يَزْدهر تعاطي الحشيش في الثانويات. من الطبيعي، والحالةُ هذه، أن تتوق الكاتبة إلى مرحلة الخمسينيات والستينيات، وهي عندها مرحلة ذهبية سعيدة حيث كان كلّ شيء متوازنًا من غير تطرّف. لقد كان الجيران يتبادلون الزيارات، وكان الراديو يهدهد الأحلام. أما الآن فقد تزايد الجشعُ المادي الذي يدلّ على فقر روحي فكم من أغنياء لئام، وكما من فقراء كرام! وتضيف إلى ذلك مخاطرَ العولمة التي تَقْضي على التراث الوطني، وادّعاءَ الثقافة (إذ كلّما كان المرء وسخًا ومبتذلاً ازداد حظُّه في الميراث الثقافي للبلد!). ويطول حديثُها عن الحمية الغذائية، وعن المأكولات الأميركية، وعن المعنى الهستيري للنجاح في المجتمع، وعن أمراض السيدا... حقًا إنّ الأرض ـ تقول الكاتبة ـ تحوّلتْ مصحًا عقليًا، ويقينًا أنّ الإنسان ازداد قسوةً. فسقيًا للماضي الجميل عندما كان الوطن، كما تقول بريجيت، يسمّى فرنسا الحلوة La Douce France!

خاتمة

صرخة في الصمت، ثورة وحنين كتابٌ يُقْرأ بلذةٍ، ويُطْلعنا على النقد الموجّه إلى مجتمع بأسره. ونحن أَحْوج ما نكون إلى الاطلاع على ما يجري في الغرب من تيارات وميول متضاربة. وإنْ صحّ أنّ الحضارة الغربية لا تَهْرم لأنّها لا تضيق ذرعًا بالنقد، وبذلك تتجاوز نفسَها باستمرار، فكم يكون جميلاً لو تصدّى أديبٌ أو مفكّرٌ من عندنا لنقد أوضاعنا الحضارية بوصفها واقعًا معيشًا ملموسًا لا صراعًا فكريًا وحسب. إنّنا نتوق إلى صرخات متلاحقة في الصمت، بعيدًا عن الماضوية، كي لا يطول الليلُ العربي لكنّ الجذوة تكاد تخمد، وأحسب أنّها لا تَلْتهب إلاّ بنقد أصيلٍ صادق. فهلْ مَنْ يَصْرخ في هذا الصمت العربي الدامس؟!

بيروت

مُنحت جائزة القصة القصيرة، في مسابقة الكاتب الشابّ للعام ٢٠٠٢ التي تنظمها مؤسسة عبد المحسن القطّان ضمن برنامجها للثقافة والعلوم، إلى ماجد عاطف على مجموعته متون، التي نجحت في غربلة تفاصيل بالغة الخصوصية في الحياة اليومية الفلسطينية ثم إعادة تركيبها بحيث تدخل في سياقات إنسانية كونية واسعة الدلالة وبارعة الترميز، وتُزاوج ما بين حسّ المأساة والملهاة في ظلّ الاحتلال.